الاستهلاكُ بينَ الوَفرةِ والعبوديَّةِ

رئيس التحرير
د. محمد محمود مرتضى

لم يعُدِ الاسْتهلاكُ في زماننا مجرَّدَ فعلٍ لتلبيةِ الحاجةِ، فاليومَ تحوَّلَ إلى نظامٍ شاملٍ يحدِّدُ قيمةَ الإنسانِ، ويصوغُ معاييرَ التفاضلِ بينَ النَّاسِ. لقد صعدتْ هذه النَّزعةُ مع هيمنةِ الفلسفةِ الماديَّةِ الغربيَّةِ، حتَّى غدتِ الثَّقافةُ المعاصرةُ أسيرةً لهوسِ التَّراكمِ واستعراضِ المقتنياتِ. وفي مواجهةِ هذا الطوفانِ الصامتِ، يبقى القرآنُ الكريمُ شاهدًا حيًّا على قدرةِ الوحيِ على تحريرِ الوعيِ وتوجيهِ الرغباتِ نحو الاعتدالِ والبركةِ والمعنى.

أوَّلًا: الاستهلاكُ بينَ الحاجةِ والهيمنةِ

يستحيلُ فَهمُ النَّزعةِ الاستهلاكيةِ المعاصرةِ بمعزلٍ عن سياقها الحضاري الذي أعاد تعريف الإنسان بوصفه كائنًا استهلاكيًّا قبل أن يكون كائنًا عاقلاً أو خُلُقيًّا. ولقد تطوَّرت هذه النَّزعة في الغرب تدريجيًّا مع صعود الفلسفة المادِّية، التي ترافقت مع الثورة الصناعية، لتتكرَّس لاحقًا في صورة حضارة كاملة تجعل الاستهلاك مرادفًا لمعنى النَّجاح والوجود والهُويَّة.

في الماضي، كان الاستهلاك نشاطًا وظيفيًّا يرتبط بإشباع الحاجة وسدِّ الرَّمق وتأمين معيشة كريمة. وكانت المجتمعات الزِّراعية التقليدية تعرف حدودًا صريحة بين ما هو ضروري وما هو ترف زائد. فقد كان الفائض نادرًا وموسميًّا، وغالبًا ما كانت الثَّقافة الدينية والأعراف المحلِّية

تكبح التبذير وتُحافظ على معنى الاكتفاء.

ولكنْ مع بزوغ نمط الإنتاج الرأسمالي، انتقل الاستهلاك من مستوى الضَّرورة إلى مستوى التَّصعيد للذَّات. فصار الاستهلاك حاملاً لمعنى التميُّز الاجتماعي، ومعيارًا لتحديد منزلة الأفراد والطَّبقات. ومع الثَّورة التقنيَّة والإعلامية، تطوَّر هذا المعنى ليبلغ مرحلة الهيمنة الشاملة؛ إذ لا تكتفي الثَّقافة الغربية بدفع الإنسان نحو الشِّراء، وإنَّما تزرع فيه قناعة عميقة بأنَّ حاجته للامتلاك لا تنتهي أبدًا، وأنَّ قيمته الجوهرية تتحدَّد بمقدار ما يستهلكه ويعرضه أمام الآخرين.

إنَّ هذا التحوُّل، كان ثمرة مشروع فلسفي اقتصادي متكامل. ففي عمق هذه النَّزعة، تكمن فلسفة مادية ترى في الإنسان «مُستهلكًا منفعلاً»، يحرِّكه الشعور الدائم بالنَّقص، لا كونه «فاعلاً حرًّا» يضبط شهواته بقيم العدل والاعتدال. فالنَّموذج الرأسمالي يحتاج إلى مستهلك يلهثُ بلا انقطاع، ليبقى النِّظام قائمًا. لذلك، جرى توظيف الإعلان والدعاية وأساطير الموضة وصناعة الصورة لتكريس الاستهلاك، بوصفه هُويَّةً وأسلوبَ حياة.

وليس غريبًا أن يتحوَّل هذا الهوس الجمعي بالاستهلاك، إلى ما يشبه الدِّين البديل. فالأسواق الكبرى تحوَّلت إلى كاتدرائيَّات جديدة، يؤمُّها النَّاس جماعاتٍ ليتطهَّروا من قلقهم عبر الشراء. هكذا غدا الاستهلاك طقسًا مدنيًّا عابرًا للثَّقافات والحدود، يحمل وعودَ الخلاص الشخصي، ويُقدِّم السِّلع بوصفها بدائلَ للقيم والمعنى.

في هذا المشهد المُربك، ينهض القرآن الكريم بمَهمَّة مزدوجة:

١. تفكيك الوهم الذي يجعل الاستهلاك غاية لا وسيلة، ويجعل الإنسان عبدًا للشيء.

٢. تأسيس معيار خُلُقي ومعنوي، يُحرِّر السلوك الاستهلاكي من سطوة الرغبة الجامحة، ويردُّه إلى مركز التَّوازن والاعتدال.

وهنا ينبغي ملاحظة، أنَّ الخطاب القرآني لا يذمُّ التمتُّع الطيِّب، بل يُنكره حين ينقلب إلى بَطر وسَفَه، وتنافس فارغ. فقد جاءت آيات كثيرة تقرُّ حقَّ الإنسان في الانتفاع بالطيِّبات: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣٢].

لكنَّه في الوقت نفسه، يربط هذا الحقَّ بالضَّبط الخُلُقي والبصيرة: ﴿**وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ**

﴿الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

إنَّ هذا الموقف الوسطي العميق، يجعل القرآن نصًّا تحريريًّا بامتياز، فيقدِّم البديل عن خطابين متطرِّفين: خطاب التَّحريم المتشنِّج، والذي يرى في كل لذَّة دنيوية رجسًا، وخطاب الانفلات المعاصر الذي يختزل الإنسان في غرائزه.

وفي لحظة تاريخية يتراجع فيها المعنى أمام وفرة السِّلع وتكاثر العروض، يُصبح ترشيد الاستهلاك من منظور قرآني، مشروعًا حضاريًّا وموقفًا مقاومًا؛ لأنه لا يكتفي بتقنين الإنفاق، وإنَّما يرفض أن تكون قيمة الإنسان رهنًا بقدرته على الشراء.

إنَّ الوعي الذي نحتاجه اليوم يتخطَّى الحسابات الاقتصادية، إلى نقد نظام حضاري كامل، جعل من النزعة الاستهلاكية أداة للهيمنة. فالهيمنة هنا لا تعني مجرَّد إغراق الأسواق، بل هي تذويب الوعي، وتجريد الإنسان من معيار القِيم.

ثانيًا: النقدُ القرآنيُّ للبَطرِ والتَّرَفِ بوصفِهما آليَّتينِ لهدمِ الأمم

إنَّ القرآن الكريم، يُقدِّم نقدًا صارمًا للترف بوصفه حالة مَرَضيَّة تتجاوز الإسراف الفردي، لتصير مرضًا جمعيًّا يقود الأمم إلى الهلاك. ويكاد هذا الخطُّ التحليلي أن يكون خيطًا متَّصلاً بين قصص الأنبياء وسِيَرَ الحضارات المندثرة. فما من قوم استغنوا بالمال والمتاع واستغرقوا في لهوهم إلا صارت نعمتهم سببًا في زوالهم. وتتكرَّر هذه الفكرة في مواضعَ شتَّى، حتى إنَّها تأخذ صفة القانون والسُّنن الاجتماعية: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا**﴾ [الإسراء: ١٦].

وتتَّضح في هذه الآية معادلة الهلاك الحضاري:

١. التَّرَف يُصبح نمطًا سلوكيًّا لدى الطبقة المترفة.

٢. التَّرَف يقود إلى الفسق: تجاوز حدود الاعتدال والقيم.

٣. هذا الانحراف الجماعي يُوجب تحقُّق العاقبة المحتومة: التدمير.

فالآية هنا، ليست خطابًا خُلُقيًّا معزولاً، وإنَّما تحليلاً لقانون قرآني يجري على المجتمعات كافَّة. فحين تُصبح النِّعمة وسيلةً للطغيان، وتتحوَّل القدرة المادِّية إلى غفلة جماعية، يبدأ العدُّ التنازلي نحو الزوال. إنَّ كلمة المترفين في النصِّ القرآني، تختزل هذا المعنى، فهم ليسوا مجرَّد أغنياء، وإنَّما طبقة اجتمعت فيها الوَفرة المادِّية مع العجز الأخلاقي. وقد وصفهم القرآن بوضوح في قوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: ٢٣].

ويمكن من خلال هذه الآية، أن نكشف آليَّتين خطيرتين:

المُترفون يصنعون خطابًا تبريريًّا يُشرعن الترف ويعطيه حصانة من النقد. ويركنون إلى التقليد الأعمى وتقديس ما وجدوا عليه آباءهم، حتى لو كان باطلاً. فالترف في التصوُّر القرآني لا يُمكن اعتباره فائض استهلاك، وإنما منظومة من التزييف المعنوي والإنكار للحقِّ. لذا، حين واجهت النُّبوَّات هذا الترف، اصطدمت بجدار المقاومة العنيد.

ويمُكن الاستفادة من قصَّة قوم سبأ لجعله مثلاً جليًّا على ذلك. فقد أعطاهم الله النِّعمة الواسعة: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ [سبأ: ١٥]. لكنَّهم لم يقفوا عند حدود الشكر والاعتدال، بل انقلبوا إلى التَّبذير والغرور: ﴿**فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**﴾ [سبأ: ١٦].

فالإعراض هنا، ترفٌ وبَطر، أفرغا النعمةَ من معناها.

كما يظهر الترف أيضًا في قصَّة (قارون) الذي جمع بين فائض المال والكِبْر والتَّباهي:

﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ**﴾ [القصص: ٧٦]؛ حيث ظنَّ (قارون) أنَّ هذا الترف هو عنوان الفضل النهائي: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾ [القصص: ٧٨].

إنَّ هذا الوهم العميق بامتلاك أسباب الغنى الذاتية، يمثِّل جوهر البَطر الذي يرفض نسبة النعمة إلى الله، فجاءت النتيجة حاسمة: ﴿**فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**﴾ [القصص: ٨١].

فهذه القصص هي إشارات حيَّة إلى خطورة الترف عندما يتحوَّل إلى ثقافة جمعية.

وإذا تأمَّلنا في الترف والبَطر في الرؤية القرآنية، سنجد أنَّهما يشتركان في أربع سمات أساس:

١. الغفلة عن مصدر النِّعمة: التوُّهم بأنَّ الوفرة تحقَّقت بالجهد الذاتي المطلق.

٢. الزَّهو والتَّباهي: جعل المظهر المادي معيارًا للتفاضل.

٣. الاستغراق في الشَّهوات: فقدان كوابح التَّوازن والاعتدال كلّها.

٤. رفض الخطاب الإصلاحي: مقاومة كلّ دعوة للتعقُّل والاقتصاد.

ولعلَّ أبرزَ ما يُميِّز النَّقد القرآني للترف، أنَّه يجعله شرطًا لانهيار العمران مهما كانت قوة الأمة. ففي قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾ [الأنبياء: ١١]. يجتمع ظلم الترَّف وغفلة البَطر مع الظلم العامِّ ليُصبح الهلاك حتميًّا.

إنَّ المعركة ضدَّ النَّزعة الاستهلاكية تكمن في المواجهة مع بنية نفسية وحضارية عميقة تتكرَّر عبر التاريخ. فالترف دائمًا هو الجذر الذي يخرج منه الفِسق والكُفران.

من هنا، يُفهم قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾ [العلق: ٦-٧]، فالطُّغيان لا يبدأ من الفَقر، بل من وهْم الاستغناء المادي. وليس الترف مقصورًا على طبقة عُليا في الغرب المعاصر، وإنَّما أصبح ثقافة مُعمَّمة تُلاحق الناس في كل الشرائح، عبر الإعلان والدِّعاية وتطبيع الرَّفاهية، كحقٍّ مُطلق لا تحدُّه قيمة أو حاجة.

لهذا، فإنَّ المشروع القرآني يربط بين الترف وبين فساد النظام برُمَّته؛ إذ إنَّ الطغيان المادي غالبًا ما ينقلب إلى ظلم سياسي واجتماعي. فالترف، في دلالته العميقة، هو لحظة سقوط الهيبة المعنوية للأشياء، وتحوُّلها إلى أصنام استهلاكية يعبدها الناس بغير وعي.

إنَّ هذه الرؤية، تجعل من نقد الترف والبَطر جوهرًا لتحرير الإنسان من عبوديَّته الصامتة للوفرة المادِّية، وإعادته إلى مقام التوازن والشُّكر والتواضع. وبهذا النقد القرآني، لا يُصبح الترَّشيد مجرَّد سياسة اقتصادية، وإنَّما خطابًا رساليًّا يواجه مشروع الهيمنة الاستهلاكية الغربي الذي يستنسخ نماذج (قارون) و(سبأ) في لباس حديث.

ثالثًا: الاستهلاكُ والهُويَّة

يتعامل القرآن الكريم مع الاستهلاك بوصفه مسألة وجودية، ترتبط بكيفية إدراك الإنسان لذاته ولمعنى حياته. فالوعي الاستهلاكي المُفرط يُحدث تحوُّلاً جوهريًّا في الهُويَّة: من إنسان حُرٍّ إلى تابعٍ خاضع لسطوة الشهوة والمظاهر.

إنَّ هذا الانقلاب من الحرية إلى العبودية، هو أخطر ما تفعله النزعة الاستهلاكية في الفرد والمجتمع. لذلك، يتكرَّر في القرآن خطاب التَّحذير من حالة الانهماك المادي الذي يُفضي إلى نسيان القصد الأعلى للوجود.

فلنتأمَّل في قوله تعالى: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الحجر:٣]. فهذه الآية تجمع بين ثلاثة أركان لثقافة الاستهلاك المُفرطة:

١. الأكل والتمتُّع المُفرط: أيْ إشباع الرَّغبات بلا ضابط.

٢. إلهاء الأمل: أي صناعة وَهْم الوعود المستقبلية؛ بحيث ينشغل الإنسان بالترقُّب الدائم لمزيدٍ من المتاع.

٣. الغفلة المصيرية: أي الانغماس في الدوَّامة دون بصيرة.

من هنا، ليس عبثًا أن تكون خاتمة هذه الآية تهديدًا صريحًا: ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الحجر: ٣]. إنَّها الإشارة إلى أنَّ هذا الطريق ينتهي بفاجعة يُدركها الإنسان متأخِّرًا.

إنَّ الهُويَّة القرآنية للإنسان ترتكز على توازن دقيق بين التمتُّع المشروع والوعي المستمرِّ، ففي قوله تعالى:

﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص: ٧٧] وضع الله معيارًا واضحًا: فالدُّنيا ليست محرَّمة، لكنَّها محدودة بنصيب معلوم. ويمكن للمتأمِّل بسهولة أن يربط بين مفردة «نصيب» وبين مفهوم القناعة. فالأصل أن تكون الدنيا وسيلة لتحقيق المقصد الأخروي. لكنَّ ثقافة الإفراط تنقلب على هذا الميزان، وتجعل الدنيا غايةً في ذاتها، وتحوِّل الإنسان إلى مستهلك دائم.

إنَّ أخطر ما في هذا التحوُّل، هو أنه يخلق شعورًا وهميًّا بالامتلاء، يطمس الفقر الحقيقي في الروح. قال تعالى: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ [التكاثر: ١-٢]. فهذه السُّورة القصيرة تضع يدَها على جذر الدَّاء:

- التكاثر: وهو ليس مجرَّد زيادة المال، وإنَّما هو سباق محموم لامتلاك أكبر نصيب من كل شيء.
- الإلهاء: وهو حالة غياب الوعي التي تجعل الإنسان يظنُّ أنَّ التراكم يزيد من قيمته وطمأنينته.

إنَّ هُويَّة الإنسان في الخطاب القرآني هي هُويَّة مبنيَّة على ما يكون: على الصِّدق، والشُّكر، والزُّهد الواعي، والبصيرة.

فالوفرة الماديِّة إذا لم تُضبط بالبصيرة، تتحوَّل إلى قيد على حرِّية الإنسان. وفي عصرنا، لم يعد الاستهلاك فعلاً فرديًّا فقط، وإنَّما أصبح شرطًا للانتماء الاجتماعي. فصار النَّاس يعرِّفون أنفسهم بهُويَّتهم الشرائية: ما يلبسون، وما يأكلون، وما يركبون. إنَّ القرآن يرفض هذه الهُويَّة القائمة على الاستهلاك، ويكشف زيفها: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ونُلاحظ أنَّ الله لم يقُل: متاع مشروع أو متاع دائم، بل سمَّاه متاع الغرور، أي أنَّه يَغُرُّ الإنسان ويعميه عن حقيقته.

هذا الوعي القرآني، هو ما نفتقده في عالم الهيمنة الاستهلاكية. إنَّ التَّنافس على المظاهر صار جزءًا من بناء الذَّات الحديثة. حين يُسأل الناس: من أنت؟ يُجيبون ضمنًا: أنا ما أمْلك وما أُظهر. لكنَّ القرآن يجعل قيمة الإنسان في وعيه وهدايته: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ [محمد: ١٧]، فأين موقع النزعة الاستهلاكية في هذا السِّياق؟ إنَّها تهدم هذا الوعي، وتخلق بدلاً منه هُويَّة زائفة قائمة على المظهر والاكتفاء اللَّحظي.

ولذلك، كان نقد الاستهلاك في القرآن موجَّهًا إلى جوهر الهُويَّة: ﴿**فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ**﴾ [المؤمنون: ٥٤]. فالغمرة: هي الغفلة الشاملة التي تعمي العقل والقلب.

إنَّ الإفراط في الاستهلاك لا يجعل الناس ممتلئين بل غارقين، في غمرة لا يخرجون منها إلا إذا

وعوا حقيقة عَلاقتهم بالأشياء. وعلى المستوى الرُّوحي، يتحوَّل القلب المشغوف بالمظاهر إلى قلب مقفول، قال تعالى: ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ [البقرة: ٧]. وهذا الختام، يأتي نتيجة تراكم مستمرٍّ لحالة الغفلة واللَّهث وراء اللذَّة.

إنَّ التَّرشيد من منظور قرآني، هو استعادة للهُويَّة لا مجرَّد تقليل للنَّفقات. وهو لحظة وعي يُحرر الإنسان من القيم الزَّائفة، ويُعيده إلى إدراك ذاته بوصفه كائنًا مستخلَفًا، لا كائنًا مُستهلكًا. ولذلك جاء قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه:١٣١]. فهذه الآية تُلخِّص فلسفة القرآن في تحرير الهُويَّة من عبادة المظهر:

- لا تمدَّنَّ عينيك: أي لا تجعل بصرك رهينةَ المُقارنة.
- ما متَّعناهم به زهرة: جمال زائل لا يدوم.
- رزقُ ربِّك خير وأبقى: أي إنَّ القيم التي تبقى أسمى من المظاهر التي تفنى.

ففي مُواجهة طوفان النزعة الاستهلاكية، يُعيد القرآن الإنسان إلى صلب هُويَّته: الوعي، والتَّواضع، والشُّكر، والزُّهد الواعي. هذه الهُويَّة هي التي تحميه من الفقدان المتواصل للمعنى.

رابعًا: الاقتصادُ الرِّساليُّ ومفهومُ الكفايةِ

إنَّ الخطاب القرآني لا يقف عند مستوى التَّحذير من الترف والإفراط، وإنّما يُقدِّم في المقابل رؤية اقتصادية رساليَّة تجعل الاعتدال والكفاية غايةً ساميةً، لا علامة عجز أو تقصير. ففي مُقابل ثقافة التراكم واللهث وراء المزيد، يزرع القرآن في وعي الإنسان قيمة الكفاية: أن يكتفي بما يكفيه، ويضبط حاجاته وفق مقاصدَ أعمقَ من مجرَّد الشهوة.

قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٧]. فهذه الآية تُلخِّص فلسفة الاقتصاد الرِّسالي في كلمة واحدة: قوامًا. أي توازنٌ راسخ يردع الإسراف والبخل معًا. إنَّ هذا الميزان هو معيار قيمي يحرِّر الإنسان من شهوة التَّكديس ومن خوف الفقر في آنٍ معًا.

ويُلاحَظ هنا، أنَّ القرآن لم يضع حدًّا رقميًّا للإنفاق، وإنَّما وضع حدًّا قِيَميًّا ومعنويًّا يختلف باختلاف حال الناس. فالاعتدال مفهوم نسْبيٌّ، لكنَّ ضابطَه الأساس ألا تتحوَّل النعمة إلى فتنة ولا الحاجة إلى ذُلٍّ.

وفي آية أخرى، يُبيِّن الله الحكمة من تدرُّج الرزق: ﴿**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الشورى: ١٢]. فهذا التَّقدير هو تدبير يختبر به الله شُكرَ العبد وصبرَه.

من هنا يظهر لنا، أنَّ الاقتصاد الرِّساليَّ في القرآن يقوم على ثلاثة مقاصد رئيسة:

١. تحقيق الكفاية الفردية دون إسراف: كي يعيش الإنسان عزيزًا لا يستعبد نفسه لتكديس ما لا ينفع.

٢. تحقيق التَّوازن الاجتماعي: فلا يكون الغنى سببًا للتَّفاخر ولا الفقر عذرًا للمهانة.

٣. تحقيق التحرُّر الرُّوحي: بأنْ يبقى القلب أكبر من الدنيا، ولا يجعل متاعها ميزان الكرامة.

ففي سورة البقرة نجد هذا المعنى جليًّا: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾ [البقرة: ٢١٩]. فالعفو هنا، ما زاد عن الحاجة. أيْ إنَّ الأصل في الإسلام أن يحتفظ الإنسان بما يكفيه ويكفي عياله، ثم يفيض عن ذلك على الآخرين. إنَّ هذا المفهوم يختلف جذريًّا عن الفلسفة الرأسمالية الغربية التي تجعل التراكم هدفًا بحدِّ ذاته، وتعتبر الوَفرةَ المفرطةَ معيارَ النَّجاح.

قال تعالى: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٣]. فهذه الآية العظيمة تقرِّر ميزان القلب: ألا يُعلِّق قيمته على ما يملك أو يفقد؛ لأنَّ الكفاية في الأصل هي كفاية القلب. فالقرآن يُعيد تعريف الثَّروة ويجعلها خادمة للإنسان لا سيِّدًا عليه. ففي قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**﴾ [القصص:٧٧]، وجَّه الله (قارون) إلى تحويل فائض ماله إلى رصيد أُخروي، لا إلى زينة عابرة. وفي هذا التَّوجيه درسٌ كبير: فالثروة في حدِّ ذاتها لا تعيب الإنسان إن لم تُصيِّره عبدًا لها.

ولعلَّ من أجمل مظاهر الاقتصاد الرِّسالي ما جاء في سورة سبأ: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ: ١٣]، فالشكر ليس باللَّفظ، بل بالعمل: أي استعمال النعمة في وجهها الحقِّ، وتحويلها إلى كفاية وإعمار.

في الحقيقة، إنَّ مفهوم الكفاية يفتح بابًا واسعًا على معنى البركة؛ تلك الطاقة الخفيَّة التي تجعل القليل يكفي، وتجعل الرِّضا يغني عن المباهاة. قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ٩٦]. فالبركة هنا هي ثمرة التوازن القيمي: لا إسراف يُهلك، ولا بُخل يقطع المودَّة، ولا لهث يُذلُّ.

وفي عالمنا اليوم، يُروِّج الاستهلاك الغربي لنموذج «الوفرة غير النهائيَّة» الذي يجعل الإنسان يستهلك أكثر ممَّا يحتاج بمرَّات كثيرة. وفي هذا النَّموذج، غيابٌ تامٌّ لمفهوم القناعة، واستبدال دائم للأشياء قبل أنْ تؤدِّي دورها.

فالقرآن يقدِّم نموذجًا مناقضًا: الاكتفاء بالكافي، والاستهلاك الهادف، والإنفاق الحكيم، فقد قال تعالى: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الروم: ٣٨]، ففي هذه الآية يجمع الله بين: العطاء الرَّشيد، وطلب وجه الله، والفلاح الحق. وهكذا يُصبح الاقتصاد الرِّسالي سلوكًا تعبُّديًا وليس مجرَّد تدبير مالي. ولعلَّ أجملَ تعبير عن هذا التوازن ما جاء في قوله تعالى: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ [الأعراف:٣١]، إنَّها دعوة للاستمتاع المشروع، مقيدة بضابط القسط والوعي.

بهذا الميزان، تُصبح الكفاية منهجًا حضاريًّا يحمي الإنسان من فقدان هُويَّته، ويجنِّب المجتمع أمراض التنافس المحموم، ويحرِّر الروح من عذاب المقارنة. فالاقتصاد الرِّسالي هو الوجه الآخر للتحرُّر من العبودية المعاصرة؛ لأنَّ الترشيد ليس حرمانًا، بل تحريرًا؛ تحرير العقل من الوهم، والقلب من الطمع، والهُويَّة من القيد.

خامسًا: منَ التَّرشيدِ الفرديِّ إلى مشروعٍ حضاريٍّ نقديٍّ

إنَّ الترشيد الذي يطرحه القرآن، لا يقف عند حدِّ التوجيه الفردي، بل يتجاوز ذلك إلى مشروع حضاري نقدي يواجه نزعة الاستهلاك بوصفها أداةً للهيمنة الثقافية والاستعباد الروحي.

ففي عالم اليوم، تحوَّل الاستهلاك إلى سلاح ناعم يستخدمه الغرب لتذويب الهُويَّات وتقويض منظومات القيم، وصناعة نمط إنسان استهلاكي مُنسلخ عن تراثه ومقاصده.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [النور: ٢١]. إنَّ خطوات الشيطان هنا لا تقتصر على الرذائل الظاهرة، وإنما كل مسار يُغري الإنسان بعبادة المظهر على حساب الجوهر. ولا يخفى أنَّ النزعة الاستهلاكية المفرطة اليوم تندرج في هذا الإطار، حين تحوِّل حياة الإنسان إلى دورة لا تنتهي من الرَّغبات المُصطنعة.

إنَّ استسلام الأمم لهذا النمط الاستهلاكي، يعني تسليمًا ضمنيًّا بقيادة الغرب للنموذج الحضاري العالمي، بكل ما يحمله من قيم الماديِّة والتَّفاهة وامتهان المعنى. ولعلَّ أبلغ آية في هذا السياق قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ [هود: ١١٣]. فالركون هنا، يعني الانصهار في نمطهم القِيمي والمعيشي، حتَّى تفقد الأمة خصوصيَّتها وهُويَّتها. إنَّ الترشيد وفق هذا المنظور هو موقف مقاوم ضدَّ الاحتلال النَّاعم للعقل والوجدان.

وفي هذا السياق، لا بدَّ أن نُدرك أنَّ معركة الوعي تسبق معركة السلوك؛ لأنَّ المستهلك المأسور للخيال الغربي لا يستطيع أن يتحرَّر من سطوة التَّقليد مهما وعظته بالمواعظ الخُلُقية، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾ [المائدة: ٤٨]، فهذه الآية القصيرة تختصر فلسفة الرَّفض: لا تتَّبع ما يستهوي النفوس إذا خرج عن القيم الحقَّة، حتى لو بَدَا مُغْريًا. منْ هنا، فإنَّ مواجهة النزعة الاستهلاكية الغربية تستدعي بناء خطاب تحريري واعٍ، يُحقِّق ثلاثة مقاصد:

١. كشف زيف الوعود الاستهلاكية: ويعني أنَّ السَّعادة ليست في كثرة المقتنيات، ولا في سرعة الاستهلاك.

٢. إحياء قيمة الكفاية والاعتدال: بوصفها مصدرًا للطمأنينة والاستقلال.

٣. إعادة تعريف النجاح: بحيث لا يُقاس بحجم الإنفاق وإنما بسُموِّ المقصد.

فقد قال تعالى: ﴿**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾ [المطففين: ٢٦]، هنا يُوجِّه القرآن التَّنافس إلى غاية أخرى: لا التَّفاخر بالمظاهر وإنَّما السِّباق نحو الخيرات. إنَّ العالم الغربي نجح في نشر أسطورة الوفرة غير النهائية التي تجعل الإنسان يعتقد أن كماله مرهون بامتلاك الجديد دائمًا. فصار الاستهلاك معيارًا للوجود والكرامة.

لكنَّ القرآن يُفكِّك هذه الأسطورة بقوَّة: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾ [الحديد: ٢٠]. ونرى هنا في هذه الآية خمسة أبعاد للاستهلاك المُفرط:

اللَّعِب: الإنفاق بلا طائل.

اللَّهو: الغفلة عن المقاصد العليا.

الزِّينة: تعلُّق بالمظهر.

التَّفاخر: استعراض فارغ.

التَّكاثر: سِباق لا ينتهي.

إنَّ كل مشروع تحرُّري، ينبغي أن يبدأ من إزالة هذه الغشاوة عن البصيرة. فهنا دعوة صريحة لتجاوز الوعظ الخُلُقي الفردي، وبناء مشروع وعي جمعي يُعيد تعريف العَلاقة بين الإنسان والمادَّة.

وفي مواجهة نزعة الاستهلاك العمياء، ينبغي للمؤسَّسات العلمية والإعلامية والروحية أن تتبنَّى خطابًا نقديًّا يفضح الطبيعة الاستعمارية للنموذج الغربي في نمط العيش. قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ [البقرة: ١٦٨]، فنلاحظ الجمع بين الإباحة المشروطة بالوعي، والتحذير من اتِّباع الخطوات الخفيَّة للضياع.

وعليه، فإنَّ مشروع الترشيد ليس ضدَّ الاستمتاع بالطيِّبات، وإنَّما ضدَّ الانقياد للفراغ الروحي الذي يجعل الشهوة بلا سقف. وبهذا المعنى، فإنَّ الترشيد هو حركة تحرُّر شاملة من عبودية العصر: عبودية الإعلان والموضة والمقارنة والاستهلاك المزيَّف.

فالدَّعوة هنا، هي أنْ نفكِّر جميعًا: ما معيار كرامة الإنسان اليوم؟ وما الذي يشكِّل جوهر هُويَّته؟ قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]، فهذه هي الإجابة الحاسمة: معيار الكرامة تقوى القلوب، لا زخارف الأثاث.

وفي الختام.. فإنَّ ترشيد الاستهلاك من مُنطلق قرآني، هو خيار وجودي؛ لأنه يُحرِّرنا من القيد

الخفي الذي صنعه الغرب عن وعينا. إنَّها معركة صامتة لكنَّها حاسمة، لا يحسمها المال وإنَّما الوعي، ولا يكسبها الأغنياء بل الصادقون.

بهذه الرسالة، يفتح هذا العدد الجديد من مجلة «تبيين» أبواب النِّقاش والنَّقد والتَّحليل للنزعة الاستهلاكية في المجتمع المعاصر، ودور القرآن في ترشيدها؛ حيث تناولت بحوث ودراسات المحور: الاستهلاك المُعوْلَم بين هيمنة الرأسمالية وَهَدي الوحي، وأسباب النزعة الاستهلاكية وسُبل علاجها من منظورَي علم النفس القرآني، وعلم الاجتماع الاقتصادي، وتحقيق التوازن بين الاستهلاك والإنتاج لبناء الاقتدار الاقتصادي من منظور قرآني، ومظاهر الاستهلاك الوثني لموارد الطبيعة الإلهيَّة.

أمَّا في باب البحوث والدِّراسات القرآنية، فقد جرى تسليط الضوء على اختلاف القراءات وأثرها في تفسير النص القرآني، مضافًا إلى قراءة في كتاب «المعيشة والتَّدبير من منظور اقتصادي إسلامي».

نرجو أن تُسهم هذه البحوث والدِّراسات في إثراء النقاش في هذا الموضوع المهم، بما يصبُّ في خانة بعث مشروع حضاري إسلامي، يحمي الإنسان من التِّيه، وُيعيد له المعنى والكرامة.

والحمد لله أوَّلًا وآخرًا

رئيس التحرير